الحروف العربية والحواس الست

حسن عباس
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

اللغة، كأداة للتواصل بين البشر، هي كالأصوات الهجائية والحركات البدنية، وما إليها من وسائل التواصل والإعلام في دنيا الإنسان والحيوان على حد سواء.

ولكن لماذا انصرف الإنسان عن وسائل الإعلام البديلة هذه إلى اللغة، وبينهما فروق نوعية جبارة استحال على الحيوان أن يجتازها إلى اللغة؟

كان الفلاسفة وعلماء اللغة والنفس يعزون ذلك إلى ملكة العقل في الإنسان. ولكن يبدو أن علماء البيولوجيا قد جاؤوا بتعليل جديد آخر.

فلقد اكتشف علماء اللغة البيولوجيون مؤخرا، لغة حياتية مسجلة على شريط كيميائي في جزيء الحمض النووي من الخلية البذرية المولدة، أطلقوا عليها اسم مدونة (ADN). وبفك رموز هذه المدونة وجدوا أنها مؤلفة من أربعة أحرف، دعوها بالأبجدية الوراثية، ورمزوا إليها بأحرف (ت. س.غ. آ).

ويشمل معجم هذه المدونة (64) كلمة، قد تمايز بعضها عن البعض، كل كلمة منها تشكل متوالية من ثلاثة أحرف على الشريط الكيميائي، الآنف الذكر[1].

وإذن يكمن أن نستنتج من هذا الاكتشاف اللغوي البيولوجي الحديث، أن الإنسان لم يبدع اللغة استجابة عقلية للضغوط البيئية المشتركة بين الإنسان

(1) كتاب الاتجاهات الرئيسية لبحث العلوم الاجتماعية والإنسانية. اليونسكو، المجلد الثاني، ترجمة وزارة التعليم العالي السورية ص. 306-311.

والحيوان فحسب، وإنما استجابة لتركيبه البيولوجي أيضا، وقد جهز بشريط لغوي مسجل في خليته البذرية المولدة (فسبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم).

وهكذا فاللغة بحسب هذا الاكتشاف تنتمي إلى الخصائص البيولوجية في الإنسان، قبل أن تنتمي إلى الملكة العقلية فيه. وإن لغة الإنسان الفجر هي من نتاجه الفطري اللاصق بالغريزة وليست قطعا مجرد مصطلحات عقلية تواضع الناس على معانيها.

كما يدعم هذا الاكتشاف صحة من ذهب إلى القول بأن أصوات الحروف، هي أصل اللغة، وإن اللغة ذات الأفعال والمصادر الثلاثية الأحرف، كاللغة العربية، هي أقرب إلى فطرة الإنسان الموروثة من سواها.

أسوق هذه النبذة عن مدونة (ADN) وأبجديتها الوراثية، لا كحقيقة علمية نهائية، لتعليل نشأة اللغة، ففي كل يوم حدث علمي جديد، وإنما للوصول إلى أن الربط بين أصوات الحروف العربية والحواس الست، ليس أمراً مزاجيا، إذ يمكن أن يرقى هذا الربط إلى مرتبة العلمي، إذا أيدته التجربة.

وهكذا تعرضت في هذه الدراسة بحكم الصلة الجديدة المفترضة بين الحروف العربية والحواس الست، إلى قضايا خاصة تتصل بعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والآثار والفيزيولوجيا والأصوات، لم يسبق أن تعرض لها باحث في اللغة العربية على ما أعلم.

فمجرد القول بوجود حاسة سادسة، ومن ثم السعي للكشف عن العلاقة الكائنة بين أصوات الحروف العربية وبين الحواس الست، مما لم يثره دارس في اللغة العربية حتى الآن، لا بد له من نهد جديد في البحث والتقصي، ولا بد لهذا النهج إذا كان صحيحاً أن يطرح قضايا غير مطروقة، ليصل إلى نتائج غير مسموعة.

ومع ذلك لا يحسبن القارئ أن موضوع هذه الدراسة مبتكر لم يسبقني إليه أحد. فلقد تناوله كثير من علماء اللغة العربية وفلاسفتها وفقهائها وأدبائها طوال ألف عام ونيف.

فالموضوع الأساسي لهذه الدراسة هو فطرية اللغة العربية.

وهذه الفطرية التي ظلت من مسلمات المدرسة اللغوية القديمة، طوال ألف عام، قد رفضها أخيراً أصحاب مدرسة لغوية محدثة من خريجي الجامعات الغربية، وقالوا برمزية اللغة واصطلاحيتها غربية كانت اللغة أو عربية. لقد أخذوا بآراء علماء اللغة الغربيين الذين أجمعوا على أن اللغة "هي التعبير الرمزي بالذات وان كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية".

ولقد شهد القرن الحالي صراعاً مرّاً بين المدرستين، كانت الغلبة العددية فيه لأصحاب المدرسة الحديثة، بحكم ألقابهم العلمية الرفيعة، ومراكزهم الجامعية المرموقة، وسلطانهم الرسمي على عقول أجيال من أدبائنا ولغوييننا من خريجي الكليات الأدبية التي يشرفون عليها، لا فرق بين من قال منهم بعبقرية اللغة العربية، وبين من أنكرها، وهكذا تضافر على دعوى فطرية اللغة العربية عوامل كثيرة، من أبرزها:

أ. إجماع علماء اللغة الغربيين على رمزية اللغة، ليصبح القول بفطرية اللغة العربية في نظرهم ونظر تلاميذهم، ضربا من التخلف الفكري أو التقوقع التعصبي، دون أن ينتبهوا إلى ما بين لغتنا واللغات الغربية من فوارق في الأصل والنشأة والبنية.

ب. اعتماد أصحاب المدرسة القديمة من القدامى والمحدثين على الحس الشاعري المرهف في المثقف العربي: أذن موسيقية مدربة على الشعر، تدرك الفروق الدقيقة بين تلونات الأصوات، ومعاناة أدبية طويلة، يدرك معها الفروق الدقيقة بين تلونات معاني الألفاظ. وهكذا لم يتبع أصحاب هذه المدرسة في ذلك نهجا علميا تجريبيا، ولم يستعينوا بمختلف العلوم الإنسانية والطبيعية والحديثة. فكانت أدلتهم اللغوية تعتمد تارة على النصوص (كالعلايلي) وتارة على ملكة التذوق الفني (كابن جني)، وتارة على صدى صوت اللفظة في النفس (كالارسوزي).

ج. انصراف معظم أدبائنا ولغوييننا المحدثين عن الشعر العمودي قولا وحفظا ورواية، مما أخذ معه الحس الشاعري المرهف ينضب في نفوسهم جيلا بعد جيل، لتضمر بذلك الملكة الفنية التي كانت تأخذ بأسلافهم إلى فطرية اللغة العربية عفو السليقة الشعرية والنشأة الأدبية.

ولكن هل يستحيل علينا أن نجعل الإنسان العربي المعاصر يدرك فطرية اللغة العربية؟

إذا كانت فطرية اللغة العربية حقيقة إنسانية، فلا بد لها أن تطرح مجموعة من القضايا الإنسانية والمادية، التي يمكن إخضاعها للخبرات العلمية، مما يحتم على العقل قبول نتائجها، عربيا كان، أو غير عربي.

فما هي القضايا التي تطرحها فطرية اللغة العربية؟

هذه الفطرية تعنى مبدئيا، أن اللغة العربية مقتبسة مباشرة من الطبيعة، ماديها وإنسانيها، وإن أثر الطبيعة لا يزال عالقا في جذور حروفها مبنى ومعنى إلى يومنا هذا.

وإذن، فإنها تفترض أن الإنسان العربي الذي أبدع هذه الحروف لم ينحدر عن شعب آخر، وأن حروفه لم يقتبسها عن لغة أخرى.

كما أن هذه الفطرية تقتضي أن يكون الحرف العربي كظاهرة ثقافية، قد تفاعل مع مقومات الشخصية العربية وقيمها وتقاليدها، وأن يكون الإنسان العربي بالمقابل قد تفاعل مع المعطيات الثقافية للحرف العربي، ومع خصائصه الصوتية أيضا.

ولقد استهدفت من هذه الدراسة إقامة الأدلة على صحة هذه المقولة ومقتضياتها.

ولكن ما هو موقف المدرستين اللغويتين الآنفتي الذكر من هذه النتائج المستخلصة مباشرة من مقولة فطرية اللغة العربية؟

بيني وبين أصحاب المدرسة اللغوية الحديثة:

لما كانت هذه المدرسة ترفض أصلا فطرية اللغة العربية، فمن البديهي أن ترفض أيضا نتائجها.

فلا الحرف العربي بكر، ولا الإنسان العربي فجر، وليس ثمة أي تفاعل بين الحرف العربي والإنسان العربي، ولا العكس بالعكس صحيح، إلى آخر ما هنالك من ضروب الرفض والإنكار، حتى ليظن القارئ وكأنه لا لقاء بيني وبين أصحاب هذه المدرسة في شيء.

وعلى الرغم من افتراقي وإياهم في بداية الشوط، واختلافي وإياهم في نهايته، فما أطول ما تعقبت خطاهم بين هاتين النقطتين، وما أكثر ما لجأت إلى العلوم التي استخدموها في أبحاثهم اللغوية، (وان غنّى كل منا على ليلاه).

ولئن كنت استعنت بنبذ من علوم التاريخ والآثار والاجتماع والفيزيولوجيا والأصوات والفن والأخلاق، بمعرض إقامة الأدلة والبراهين على صحة هذه المقولة، فإن هذه الدراسة تنتمي أكثر ما يكون الانتماء إلى علم اللغة النفسي.

فاللغة العربية بخصائصها ومزاياها الفطرية، لا يمكن أن تنكشف للذهن العربي، ما لم يستخدم العلوم اللغوية الحديثة في دراستها وتحليلها، ولكن تحت رقابة حس شاعري مرهف، وذوق أدبي رفيع.

فاللغة العربية كظاهرة نظرية من مظاهر الحياة الإنسانية، لا تخشى العلم الحديث قطعا، وبقدر ما نستخدم من الوسائل العلمية الحديثة في استجلاء كنهها، تتاح لنا الفرص للكشف عن المزيد من قيمها الجمالية ومضامينها الثقافية، لا بل وللكشف أيضا عن المزيد من خصائص الحياة الإنسانية وقيمها، كرفيقتي عمر منذ فجرهما الحضاري الأول.

ففي اللغة العربية من الأصالة العلمية، ما في أي بادرة أصيلة من بوادر الحياة.

بيني وبين أصحاب المدرسة اللغوية القديمة:

إني واحد من تلاميذ هذه المدرسة ومريديها. قد ترعرعت في ربوعها، أنهل من ينابيعها، وأقطف من ثمارها، وأتفيأ ظلالها، فكانت جنتي اللغوية الفجر، وما كان أسعدني بها، حتى ظننت أنه لن يكون يوما ما أي فراق بيني وبين أقطابها.

ولكن، على الرغم من انطلاقي وإياهم في البحث والتقصي من نقطة الابتداء، هي بداية الحرف العربي، ووصولنا سوية إلى نقطة الانتهاء، هي فطرية اللغة العربية، فإني لم ألتق وإياهم في هذه المسيرة اللغوية الطويلة بين هاتين النقطتين، إلا في صدف من تقاطع الطرق، لنتفق حينا ونختلف أحيانا كثيرة.

فلقد اعتمد أصحاب هذه المدرسة في أبحاثهم وتقصياتهم بصورة عامة على سليقة أدبية متمكنة، وحس مرهف الشعور. ولربما تجاوزوا في تقصياتهم أحيانا، النطاق اللغوي التقليدي، إلى نطاق علوم النفس والحركة والأصوات، والاجتماع وغيرها، ولكن دون أن ترقى مثل تلك اللمع الذكية إلى مرتبة البحوث العلمية الحديثة. فلا نهج علمي تجريبي واضح، ولا استثمار جدي لمكتشفاتهم اللغوية في ميادين النفس والاجتماع والتاريخ والأصوات وما إليها.

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة بعنوان (علماء اللغة العربية وأبحاث الحروف) استعرضت فيه آراء لفيف من كبار أصحاب المدرستين اللغويتين، حول خاصية الإيحاء في الحروف العربية، المرتبطة مباشرة بفطرية اللغة العربية.

أما أنا، فقد نهجت في التدليل على فطرية اللغة العربية نهجا مغايراً.

فما هو منهجي في هذه الدراسة؟

لقد اعتمدت طريقة الخطإ المفترض في البرهان الرياضي للتحقق من مقولة فطرية اللغة العربية. أفترض، وأتساءل عن صحة الافتراض، وأجيب. ثم أتساءل عن صحة الإجابة. وهكذا، إلى أن تتطابق الإجابة الأخيرة مع حقيقة

الواقع. فتنحسب هذه الحقيقة الأخيرة، بحكم المنطق الرياضي، على جميع الافتراضات السابقة وأجوبتها.

الافتراض الأول:

إذا صح أن اللغة العربية فطرية النشأة، فإن ذلك يفترض بداءة الحرف العربي وفجرية الإنسان العربي على حد سواء.

(فبداءة الحرف العربي مرتبطة مباشرة بفجرية اللغة العربية ولا فراق. وفجرية الإنسان العربي مستخلصة من هذه الصلة الراهنة بين معاني الحروف العربية وبين الطبيعة. إذ لو أن الإنسان العربي اقتبس حروفه عن غيره، لانقطعت هذه الصلة بينها وبين الطبيعة، مثلما انقطعت في الحروف الغربية المقتبسة أصلا عن الأبجدية الفينيقية).

وللإجابة على هذه الفرضية، عقدت فصلا خاصا في مستهل هذه الدراسة بعنوان: "حول بداءة الحرف العربي والإنسان العربي".

ولقد تبين لي من هذه الدراسة، أن إنسان الجزيرة العربية ظل مقيما فيها لم يبرحها قطعا، ولم يغزه في عقر داره شعب آخر على الإطلاق، منذ بداية العصر الجليدي الرابع حوالي الألف الستين قبل الميلاد حتى الألف العاشر أو الثامن قبل الميلاد، بعد أن أبدع جميع حروفه.

كما تبين لي أن الإنسان في الجزيرة العربية قد مر بمراحل حياتية ثلاث:

1. مرحلة الصيد: وقد استمرت منذ فجر الإنسانية حتى الألف الثالث عشر قبل الميلاد. وكان الرجل القوي في هذه المرحلة هو سيد الأسرة بلا منازع.
2. مرحلة الزراعة: وقد بدأت أول ما بدأت على وجه الأرض في الجزيرة العربية على يد المرأة، حوالي الألف الثاني عشر قبل الميلاد. فكانت المرأة في الجزيرة العربية أول فلاح في التاريخ لتكون بذلك أول معلم في دنيا الحضارات. وفي هذه المرحلة انتزعت المرأة الذكية زعامة الأسرة من الرجل القوي.

3. مرحلة الرعي: وقد نشأت في الجزيرة العربية أول ما نشأت على وجه الأرض، حوالي الألف العاشر قبل الميلاد. وفي هذه المرحلة استعاد الرجل الشجاع المحارب سيادته على الأسرة، ولا يزال محتفظا بها إلى حد ما، حتى اليوم.

كما تبين لي أن إنسان الجزيرة العربية قد أبدع حروفه عبر هذه المراحل الحياتية الثلاث، فكان منها الغابي والزراعي والرعوي. وقد أبدع الرجل استجابة للمقتضيات المهنية في مرحلتي الصيد والرعي بعض الحروف، كما أبدعت المرأة استجابة لمقتضيات مهنتها في المرحلة الزراعية بعض الحروف أيضا.

وهكذا فإن الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية بين الألف العاشر والثامن قبل الميلاد إلى وادي الفرات ووادي النيل، تحت ضغط الجفاف المتزايد ألف عام بعد ألف، كانت تحمل بذور حضارة راقية، من حروف عربية، ورموز كتابية، وأدوات مدنية، ومعتقدات سماوية وتنظيمات قبلية كانت أساس أنظمة الحكم في المنطقة العربية حتى العصر الحديث.

الافتراض الثاني:

إذا صح أن الحروف العربية بديئة، فالمفترض أن يكون الإنسان العربي قد استخدم أصواتها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الإنسانية.

وفي الحقيقة، عندما لمس الإنسان العربي الفجر الأشياء من حوله، لا بد أنه قد عبر عن الإحساس بالخشونة أو النعومة أو الحرارة أو الصلابة، وما إليها من الملامس، بأصوات معينة مرفقة بحركات جسدية ملائمة، وذلك بمعرض التواصل والإعلام مع أبناء مجتمعه. وإذن يمكن أن نطلق على مثل هذه الأصوات اسم الأصوات اللمسية. ولا بد أن هذه الأصوات والحركات قد تطورت وتهذبت مع تطور الإنسان العربي، عقليا ونفسيا، واجتماعيا ومهنيا، لتسقط الحركات الجسدية وتختصر الأصوات الكثيرة أخيرا في أصوات حروف لمسية معينة.

ثم عندما تذوق هذا الإنسان الأشياء وشمها، ونظر إليها وسمع أصواتها، وعندما عانى بعض الانفعالات الشعورية، فلا بد أن يكون قد عبر عن كل ذلك بأصوات خاصة مرفقة بحركات ملائمة، على مثال ما فعل بالملموسات. لتسقط الحركات، وتتهذب الأصوات، فتختصر في حروف ذوقية وشمية وبصرية وسمعية وشعورية.

الافتراض الثالث:

إذا صح أن الإنسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات الحروف العربية الفجرية فالمفترض أن توحي الأصوات بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. فأصوات الحروف، قبل أن تنتمي إلى القطاع اللغوي، تنتمي أصلا إلى القطاع الصوتي.

ولقد اقتضتني الإجابة على هذا الافتراض، القيام بدراسة مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس، وقد خلصت من هذه الدراسة إلى تصنيف الحواس في هرمين حسيين اثنين:

أ.فالحواس الخمس من حيث ماديتها يمكن تصنيفها في هرم حسي سوي.

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس، أشدّ الحواس مادية، كقاعدة له. ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية، في الطبقة الثانية. ومن ثم تأتي حاسة الشم، فحاسة النظر، لتحل حاسة السمع أقل الحواس مادية وأكثرها تجريداً، قمة الهرم.

ب.أما الحواس الخمس من حيث قدرتها على استيحاء الأحاسيس (أي التأثر بها وإدراكها)، فيمكن تصنيفها في هرم حسي منكوس، ذروته في الأسفل، وقاعدته في الأعلى.

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس المغلقة على نفسها في الذروة المنكوسة، فلا توحي ملامس الأشياء بأي إحساس ذوقي أو شمي أو بصري أو سمعي أو شعوري. ثم تأتي حاسة الذوق في الطبقة الثانية. فتوحي مذاقات الأشياء، بأحاسيس لمسية فقط، ولا توحي بشيء من أحاسيس الحواس الأخرى أو

المشاعر الإنسانية. ثم تأتي على التوالي حواس الشم، فالنظر، فالسمع. كل حاسة منها تدرك أحاسيسها وتستوحى أحاسيس من دونها من الحواس، دون أن تستطيع استيحاء أحاسيس من فوقها. ولذلك فإن حاسة السمع تستوحي مختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. بمعنى أن الأصوات توحي أصلا بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية.

وهذه العلاقة بين الأصوات وبين الأحاسيس والمشاعر الإنسانية قد اكتشف بعضها كثير من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة. منهم عالم الصوت (يلماز) الذي تبين له من كشوفه (ان ثمة تشابها بنيويا أساسيا بين أصوات اللغة التي تدركها الأذن، وبين الألوان التي تراها العين).

ومنهم الشاعر الفرنسي (رامبو) الذي لحظ أن لأصوات بعض الحروف الفرنسية إيحاءات بألوان معينة، ليوحي له صوت حرف (O) باللون الأسود.

ومنهم ابن جني الذي جاء بقاعدته الشهيرة (حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الاحداث)، لتوضيح العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية للفظة وبين صورتها المرئية في الحدث الذي تعبر عن معناه.

ومنهم الارسوزي الذي قال بالعلاقة الثلاثية الأركان بين الصورة الصوتية للفظة العربية والصورة المرئية لها، وصداها الوجدان (أي المشاعر الإنسانية).

إلا أن أحدا لم يقل بأية علاقة بين الأصوات والأحاسيس الذوقية والشمية.

ولكن تبين لي أثناء هذه الدراسة، أن الأصوات الانفعالية، لا يمكن أن توحي بمشاعرها الإنسانية بدقة، إلا إذا كان سامعها قد عانى سابقا هذه المشاعر بالذات.

وهذا ما قادني إلى القول بأن الشعور الذي يعي ذاته بذاته، هو الحاسة السادسة. فعقدت فصلاً خاصا للكشف عن دور الشعور، سواء في عملية إبداع

أصوات الحروف عن طريق التقمص، أو في عملية استيحاء معاني الأصوات عن طريق الاستبطان، لأخلص أخيرا إلى البرهان على أن الشعور يتمتع بخصائص الحواس، وإن تميز عنها في بعض المواصفات. ونظرا لشفافية هذه الحاسة وتجردها المطلق عن المادة فقد صنفتها على امتداد الهرمين الحسيين فوق ذروة الأول وقاعدة الثاني.

الافتراض الرابع:

إذا صح أن الإنسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه، وأن الأصوات توحي فعلا بمختلف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، فالمفترض أن توحي أصوات الحروف العربية بهذه الأحاسيس والمشاعر.

(فمجرد القول بأن الإنسان العربي الفجر قد استخدم أصوات حروفه للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره، لا يتضمن بالضرورة هذه الصلة الإيحائية بين أصوات الحروف ومعانيها. إذ يمكن أن نصرف ذلك إلى أن الإنسان العربي قد فرض رمزية مصطنعة بين الحروف ومعانيها. وذلك على مثال ترجمة العالم بافلوف الشهيرة الذي استخدم فيها قرع الجرس لتنبيه الحاسة الذوقية في كلبه. وليس بين صدى قرع الجرس وبين حاسة ذوق كلبه إلا عادة تقديم الطعام له عند القرع، ولا إيحاء ولا استيحاء).

وللتحقق من صحة هذا الافتراض، أخذت أتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي حرفا بعد حرف، للكشف عن خصائصها ومعانيها، على مهل الشعور والأعوام. ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الإنسانية، لكل حاسة مجموعة من الحروف، ولكل انفعال شعوري أساسي، حرف خاص.

فكان لحاسة اللمس ستة حروف هي: (ت.ث.د.ذ.ك.م).

وكان لحاسة الذوق حرفان هما (ر.ل.).

وكان لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي (الهمزة أ. ب. ج. س. ش. ط. ظ.غ.و.ي).

وكان لحاسة الشعور سبعة أحرف هي: ((ص.ض.ن.خ.ح.ه.ع.).

أما حاسة الشم فلم أجد لها حرفا خاصا بها، وإن كان لبعض أصوات الحروف إيحاءات شمية، إلى جانب أبحاثها الحسية الخاصة. على أن حرف الطاء البصري، هو ألصق الحروف بحاسة الشم، مخرج صوت وإيحاء معنى.

الافتراض الخامس:

إذا صح ما انتهيت إليه من تأملاتي الخاصة، من حيث تصنيف الحواس في هرمين حسيين، ثم من حيث توزيع الحروف بين الحواس والمشاعر الإنسانية، فالمفترض أن يكون لكل ذلك سنده من واقع اللغة العربية. ولا بد للإنسان العربي أن يكون استثمر الخصائص الصوتية لحروفه في إبداع ألفاظه للتعبير عن معانيها.

وبتعبير أدق، لا بد أن يكون لصوت الحرف العربي دوره الفعال في تكوين معنى اللفظة العربية.

وللتحقق من صحة هذه الافتراضات لجأت إلى المعاجم اللغوية للكشف عن مدى التوافق بين خصائص الحروف الصوتية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تركيبها.

ولقد كان من أصول البحث العلمي، أن أستخرج معاني جميع المصادر التي تبدأ بحرف معين، ثم معاني جميع المصادر التي تنتهي به، ومن ثم جميع معاني المصادر التي يقع هذا الحرف في أواسطها. ثم أقارن بين هذه المعاني وبين الخصائص الصوتية لهذا الحرف. وذلك لأرى مقدار نسبة التوافق بين خصائصه الصوتية وبين معاني جميع المصادر التي شارك في بنيانها. وأخيرا، لنقرر فيما إذا كان الإنسان العربي قد استخدم الخصائص الصوتية لهذا الحرف في معاني ألفاظه، أن أنه لم يفعل. وهكذا حرفا بعد حرف، لنحكم في النهاية، فيما إذا كان

للحروف العربية معان خاصة، أم أنها مجرد رموز على معان، وأن اللفظة العربية بالتالي، مجرد مصطلح على معنى، كما يقول أصحاب المدرسة اللغوية الحديثة.

ولما كان هذا التقصي العلمي فوق طاقتي، فقد رأيت بادئ ذي بدء أن أكتفي باستخراج معاني الألفاظ التي تبدأ بالحروف موضوع الدراسة، بزعم أن الحرف الأول من اللفظة العربية، هو الذي يطبع معناها بخصائصه الصوتية. وذلك استنباطا من النزعة الفردية في الإنسان العربي المتهم بأنه مولع بمكان الصدارة من كل أمر، لا يبعد معها أن يُسْنِد الزعامة في الكلمة للحرف الأول. فماذا كانت النتيجة؟

لقد صدقت وجهة نظري هذه بالنسبة للحروف القوية بصورة غير متوقعة. فكانت خصائص الحروف ذوات الشخصيات المتميزة تتطابق مع معاني الألفاظ التي تبدأ بها، بنسب تتراوح بين (40–66) بالمئة، كحروف (د، ر، ل، ب، ج، ف، ز، ق، خ، ص، ه، ع). كما أن معاني الألفاظ التي بدأت بمعظم هذه الحروف قد التزمت بطبقاتها الهرمية، لم تتجاوزها إلى الطبقات العليا، إلا نادراً، وبفعل حرف قوي الشخصية ينتمي إلى تلك الطبقات، وتلك معجزة خارقة لا مثيل لها في أي لغة من لغات العالم.

فمعاني جميع الألفاظ التي تبدأ بحرف الدال اللمسي مثلا، لم تتجاوز طبقته اللمسية إلى الطبقات العليا إلا في ثلاثة ألفاظ (الدسم) للطبقة الذوقية، و (دندن) و (دوى) للطبقة السمعية.

أما الحروف الشاعرية الرقيقة، كحروف: (م.س.ن.)، فكانت أقدر على فرض خصائصها الصوتية على معاني الألفاظ، عندما تقع في نهاياتها، وليس في أوائلها، وتلك رهافة سمع في الإنسان العربي ملفتة للأنظار.

(وذلك، على مثال ما كانت المرأة في المجتمع الرعوي أوحي بخصائصها الانثوية، رقة وحشمة وإحاطة وحنانا، عندما تستقر في مضربها في مؤخرة الصفوف، انسجاما مع ميلها الفطري الأصيل إلى دواعي الطمأنينة والاستقرار.

على العكس من الرجل الراعي في صحرائه، الذي كان بجهارة صوته، وخشونة منظره وصلابة قسماته، أوحى بالقوة والرجولة وادعى البطولة، عندما يكون في مقدمة الصفوف).

أما الحروف الضعيفة الشخصية، فلم تفلح في فرض خصائصها الصوتية على معاني الألفاظ التي تتصدرها أو تتوسطها أو تنتهي بها، كما لم تستطع أن تحتفظ بطبقاتها الهرمية. فهي حروف أمعية، لتلوين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبها، كحروف: (ا، و، ي، ط، ح). شأن هذه الحروف، شأن الأمعيات في المجتمعات الإنسانية.

وهكذا بالتزام معاني الألفاظ التي تبدأ بالحروف القوية الشخصية طبقاتها الحسية، لا تتجاوزها إلى الطبقات العليا، إلا نادرا، وإن شملت الطبقات الحسية الأدنى، فإن ذلك يؤكد صحة تصنيف الحواس في الهرم الحسي المنكوس، وإن الأصوات بخاصة توحي بأحاسيس جميع الحواس.

الافتراض السادس:

(كل أثر فني أصيل يحمل بالتأكيد نفحة من روح مُبْدِعه، لينطبع بطابعه الشخصي المميز، عمارة كان الأثر، أو نحتا، أو رسما، أو شعرا، أو موسيقى أو أدبا... مما يستطيع معه ذواقة الفنون الأصلاء، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الأنساب إلى أصحابها).

فإذا صح أن الإنسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية، ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره في ألفاظ طوال آلاف الأعوام، فالمفترض أن يحمل الحرف العربي طابع الشخصية العربية.

وللتحقق من صحة هذا الافتراض عقدت فصلا خاصا في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان: "بين فردية الإنسان العربي وفردية الحرف العربي".

وفي الحقيقة، لما كان الإنسان العربي قد بدأ حياة الرعي والتشرد في الجزيرة العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد، ولا جدران عالية تعصمه من عاديات

الوحوش والناس، ولا سقوف مرفوعة تقيه من تقلبات الطقس والطبيعة، فقد استجاب لكل هذه التحديات بحصون منيعة من القوة والشجاعة، وبأردية واقية، من التقشف والصبر والجلد.

ولما كان المجتمع العربي الرعوي لم ينعم بسلطة مركزية مسيطرة تحميه من أعدائه والطامعين بقطعانه فقد لجأ إلى روابط قبلية تنجده عند الحاجة وتثأر له عند الاقتضاء.

ولما لم تتوفر له مؤسسات اجتماعية تكفله في عوزه ومرضه وضعفه وطوارئه، فقد أحدث مؤسسات إنسانية من تقاليد الكرم والضيافة ومفاهيم الشهامة والمروءة والنجدة والشرف، يلجأ إليها عند الضرورة. وهكذا قامت فردية الإنسان العربي أول ما قامت، على أصالة الصلة بين طاقاته الروحية وطاقاته الجسدية، بعضها يأخذ بعناق بعض.

فكلما صبت نفسه في مواقفه إلى قيم إنسانية عليا، استجاب جسده لتحديات الحياة قوة وتجلدا. والعكس بالعكس صحيح. لتقوم فردية الإنسان العربي أصلا، على الرابطة الأصلية بين القيم الأخلاقية والقيم الاجتماعية.

وبالمقابل، فإن الحروف العربية قد نشأت منذ فجرها الأول في بيئة بكر، لا لغة فيها، ولا فنّ ولا أدب، ولا دين، ولا فلسفة، فألقى الإنسان العربي على عاتقها كل هذه الأعباء الثقافية للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره وأفكاره وحاجاته. وقد استجابت الحروف العربية عبر العصور لهذا التحدي الثقافي الكبير. لتحمل الحروف العربية في طيات أصواتها تراث الإنسان العربي الثقافي، إن لم يكن تراث الإنسانية.

وهكذا قامت فردية الحرف العربي على أصالة الصلة بين خصائصه الصوتية المميزة وبين معانيه، على مثال ما قامت الفردية العربية على أصالة الصلة بين طاقاته الجسدية وطاقاته الروحية.

وانسجاما مع نهج الإنسان العربي الفني الأخلاقي في مراتبه الاجتماعية وتقاليده، ومؤسساته، قد خص الحروف العربية التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية بمختلف معاني الشهامة والمروءة والسمو ومشاعر النخوة والحنين والخشوع وما إليها من القيم الإنسانية. أما الحروف التي في أصواتها فجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز، فقد خصها بمعاني الفظاظة والقباحة والخسة والقذارة والعتامة والاضطرابات النفسية والتشوهات الجسدية، وما إليها من النقائص الإنسانية، في روابط صحيحة صريحة متبادلة بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية، ظاهرة لغوية متفردة في دنيا الحروف لا مثيل لها في لغات العالم أيضا.

ليصدق بذلك الحدس الذي تأسست عليه أصلا هذه الدراسة ومآله:

"لا فن بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا فن"

الافتراض السابع:

إذا صح أن الإنسان العربي قد صبّ في الحرف العربي عصارة روحه، وخلاصة مقوماته الشخصية، على وجه ما سبق، فالمفترض أن يكون ثمة علاقة نفسية بين الحرف العربي والإنسان العربي.

وللتحقق من صحة هذا الافتراض، عقدت فصلا خاصا في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان: "الجوانب النفسية في الحرف العربي".

وفي الحقيقة، لما كان لصوت كل حرف عربي خصائصه الصوتية الذاتية التي توحي بمعانيه، فانه لا بد للإنسان العربي بصورة مبدئية أن تتأثر نفسه بخصائص هذه الحروف عند التلفظ بها. فإذا كان في صوت الحرف اهتزاز واضطراب كالهاء مثلا، انعكس هذا الاهتزاز والاضطراب على نفس قائله وسامعه على حد سواء. ويكون ذلك أوضح ظهورا، إذا رافق مثل هذا الحرف حروف مناسبة، وركبوا في صيغة ملائمة، ولا بد لقائل هذا الحرف أن تعاني

جملته العصبية، ذات الاهتزاز، والاضطراب، استعدادا للتلفظ به، على مثال ما أصاب مبدعه الأول، ولو بانفعال مخفف، آه، أوّاه.

وهكذا الأمر مع بقية الحروف، وإذن:

لما كانت خصائص الحروف العربية هي وليدة مخارجها الصوتية على مدرج النطق، وكان لكل إنسان مخرج صوت معين على مدرج النطق أيضا، فإن الإنسان الذي ينطبق مخرجه الصوتي على مخرج أي حرف من الحروف العربية، لا بد أن تتأثر شخصيته بخصائص ذلك الحرف بالذات.

فالفرد الذي يكون مخرج صوته العفوي المعتاد هائيا مثلا، لا بد أن تكون شخصيته منطبعة مسبقا بخصائص صوت هذا الحرف، اضطرابا نفسيا ويأساً وحزنا دفينا، وأن يوحي صوته بالتالي بهذه المشاعر بالذات، وهكذا الأمر مع من كان مخرج صوته عينيا، أو حائيا، أو جيميا، أو نونيا. وما إلى ذلك من المخارج الصوتية للحروف والنماذج الإنسانية للأفراد.

وهذه القاعدة الصوتية اللغوية، هي أصدق ما تكون بين المغنيين والمرتلين.

ولقد عقدت في القسم الثاني من هذه الدراسة فصلا خاصا بعنوان "الحروف العربية والأصوات الغنائية"، كشفت به فيه عن مخارج أصوات بعض المغنيين والمرتلين، منهم ذو المخرج الصوتي العيني، (وديع الصافي، عبد الوهاب في شبابه، فيروز، أم كلثوم)، والهائي (فريد الأطرش خضيري أبو عزيز)، والحائي (نجاح سلام)، واليائي (فايزة أحمد)، والنوني (عبد الباسط عبد الصمد، أحمد السكري).

ولكن هل تقتصر هذه القاعدة الصوتية اللغوية على الإنسان العربي فحسب، أم أنها تتجاوزه إلى الناس كافة؟

بحكم أصالة الصلة بين الخصائص الصوتية للحروف العربية المقتبسة عن الطبيعة وبين معانيها، فإن الحرف العربي، في هذا المضمار الصوتي اللغوي،

يتجاوز نطاقه القومي إلى الإنساني. ولقد ضربت على ذلك بعض الأمثلة من مختلف الشعوب.

ومن ينكر علينا هذه العلاقة بين شخصية الإنسان وبين مخرجه الصوتي على مستوى الأفراد والشعوب، فإني أحيله إلى المنحنيات الصوتية الثلاثة التي اكتشفها العالم (ادوارد سيفرز) وتلميذه الموسيقي "غوستاف بكينج".

فكل فرد، على رأيهما، يحمل كلامه خصائص لا تتعطل، ولا يكمن التخلي عنها. وهذه الخصائص ترجع في أصلها إلى القسم الأدنى من الجهاز الصوتي الواقع بين منطقة البطن، وبين الصدر والتجويف البطني. وبتحليلهما للأصوات البشرية، تبين لهما أن ثمة ثلاثة نماذج أساسية من المنحنيات، ولكل منها تفرعاته. وكل متكلم ينتمي أصلا لواحد من هذه المنحنيات التي تتحكم بحركاته الجسدية واليدوية والوجهية، وكذلك بالكتابة والرسم والرقص والرياضة والجنس، وكافة النشاطات وأنماط السلوك. وان القبائل، وحتى الشعوب برمتها، لا تستخدم، بشكل شبه حصري، إلا واحدا من منحنيات (بكينج).

أسوق هذا الخبر (العلم نفسي –الصوتي)، للتدليل على أن ثمة علاقة أصيلة بين شخصية الإنسان، وبين طابعه الصوتي، ولا يهم كثيرا بعد ذلك، أن يكون، أو لا يكون ثمة علاقة ما بين المخارج الصوتية للأفراد والشعوب، وبين منحنيان (بكينج) وإن كنت لا أستبعدها.

وهكذا قد خصصت القسم الثاني من هذه الدراسة، وعنوانه (الحروف العربية والشخصية العربية)، لاستثمار خصائص الحروف العربية في الكشف عن الجوانب النفسية والاجتماعية والفنية والأخلاقية في الإنسان العربي، وعن مدى تجاوب الحرف العربي مع مقومات الشخصية العربية، على حد سواء.

وهكذا بدأت دراستي عن الحروف العربية، من حيث انتهى أصحاب المدرسة اللغوية القديمة، وانتهيت بها عند أبواب المدارس اللغوية الحديثة، لم أتجاوز عقباتها إلا قليلا، ولكن صحابة مقولة فطرية اللغة العربية، في زيها العصري المبتكر.

وإني لأرجو أن تثير هذه الدراسة اهتمام اللغويين من أصحاب المدرستين، ليؤاخوا في ذلك بين التراث العلمي المعاصر، للكشف عن خصائص الحرف العربي، وعن مقومات الإنسان العربي.

فلقد عناني من هذه الدراسة، أكثر ما عناني جانباها الثقافي والقومي، فتوخيت منها أمرين اثنين:

أ.أن ألقي بعبء تعريف مفاهيمها، وتحديد مضمونها الثقافي، على عاتق قبضة من الحروف، لا يصعب استيعاب خصائصها. فإذا ما توصل الإنسان العربي إلى الكشف عن جميع خصائص الحروف العربية ومعانيها، في محاولات لغوية مماثلة، استطاع أن يحرر لغته وفلسفته وأدبه ومفاهيمه من مختلف الشوائب. ويتحرر التراث العربي الأصيل من دخيله ومدسوسه، يستطيع الإنسان العربي أن يستأنف مسيرته الثقافية بروح عصرية جديدة، دون أن يتنكر لمضمونه الذاتي ومقوماته القومية.

ب.أن أستنبط من الحروف العربية نهج الإنسان العربي في الحياة، بقواعده التي أسس عليها ذاته، وأقام تقاليده، وبنى مؤسساته. فأربط بين هذه القواعد وبين خصائص الحروف العربية ومعانيها، كحقائق راهنة لا مجال لإنكارها، فيتمسك باللب الأصيل، ويتخلى عن القشر المرحلي العارض.

وهكذا فالحروف العربية، إنما هي جذور الإنسان العربي في الطبيعة والتأريخ معاً. إنها الجاذبية اللامرئية التي تربطه بصميم أمته وتجمع بينه وبين إخوانه على سطوح مجتمعاتنا.

ولهذا السبب بالذات، قد استهدفت الحروف العربية منذ مطلع هذا القرن، ولا تزال تستهدف لحملات مشبوهة من تهم القصور والعقم وافتراءات الرجعية والتخلف، ليصار إلى تبديلها بحروف لاتينية تارة، وللاستعاضة عن الفصحى باللهجات العامية المحلية تارات أخر.

وعندما نتخلى عن حروفنا، أو فصحانا، لا بد أن تتقطع بذلك جذورنا الثقافية والقومية معا، وإن نفقد بالتالي ارتباطنا ببيئتنا وأمتنا، لنغترب في عقر دارنا غربة قاطعة، لا لقاء معها أبد الدهر.

وعندئذ، تزداد فرص بقاء ونماء جميع الكيانات السرطانية في جسم الوطن العربي العملاق، بما يمكن إثارته وزرعه في روابطه وبين أجزائه من مختلف عوامل التفسخ، ومن شتى ضروب التناقض والنزاع.

مجلة "اللسان العربي": الجزء الأول من العدد السابع عشر (ع. 17 ج. 1)، من الصفحة 123 إلى 135.

سنة النشر: 1979.